

## لم يرحم شيخوخته

ولنترك أبطال قصتنا يسابقون الزمن لتأسيس جيش قوي، وكل ما يحتاج إليه من مستلزمات في جميع المجالات، ولنذهب إلى حارة الصناديقية ونستمع لحديث الجبرقي لابنه خليل، وقد كان الباشا هو موضوع الحديث، حيث سأل خليل والده عن الباشا قائلاً:

- ماذا ستكتب يا أبي في كتابك عن أفندينا الباشا وما يفعله؟
- اعلم يا بني، أنني ما شرعت في كتابة هذا الكتاب لخدمة ذي جاه كبير، ولم أقصد من كتابته طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني والحمد لله.
- وفقك الله يا أبي لما فيه الصدق والخير والأمانة، فماذا سجلت عن ولي الأمر؟

- إن ولي الأمر يا بني، قد اعتدى على مساتير الناس، وأغلق البيوت المفتوحة، لأن في طبعه داء الحقد والشره والطمع، والتطلع إلى ما في أيدي الناس وأرزاقهم، ولم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب، وقطع أرزاق المسترزقين، والحجر والاحتكار لجميع الأسباب.

- ألا يوجد بالقرب منه من ينصحه يا أبي؟

- لا يتقرب إليه يا بني من يريد قربه إلا بمساعدته على مراده ومقاصده، ومن كان خلاف ذلك، فلا حظ له معه مطلقاً، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب -ولو على سبيل التشفع- حقد عليه، وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبداً، وبطانته يا بني يوافقونه ويساعدونه في مشروعاته، إما رهبة وخوفاً على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم، وإما رغبةً وطمعاً وتوصلاً للرياسة والسيادة، وهو الأكثر، وخصوصاً أعداء الملة الذين هم الآن أخصاء لحضرته ومجالسه، وهم شركاؤه في أنواع المتاجرة وهم أصحاب الرأي والمشورة.

- فماذا عن أعماله النافعة يا أبي؟

- إن له أعمال يا بني من همم الملوك، كحفر ترعة المحمودية، وتعمير الإسكندرية، وإصلاح بوغاز رشيد وغير ذلك من الأعمال النافعة، وهو كثير الحركة والنشاط ولا يقر له قرار، وله مندوحة ليست لغيره من ملوك هذا الزمان، ولو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والثقافة والتدبير والمطاولة، لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه.

لم يكن الجبرتي مؤرخاً حكومياً كما يقول الأستاذ جمال بدوي، يكتب ما يرضي الحاكم، ولكنه كان مؤرخاً شعبياً من الطراز الأول، يسجل ما يراه في أمانة ودقة، دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفاً من سخطها.

ومثل هذا المسلك الأخلاقي، لم يكن مما يُعجب الحكام، لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له، أن يحرقوا له البخور ويتحلوا البطولات، ويُزيّفوا الحقائق فيجعلوا من خزيه مجداً، ومن سوءاته عزاً.

لقد عاصر الجبرتي صعود نجم محمد علي خطوة بخطوة، رآه جندياً مغموراً يحضر مجالس العلماء، ويتملق مشايخ الازهر ويصانعهم، ويتظاهر بالتقوى والورع، ثم يتقرب من زعيم شعب القاهرة الطيب العفيف عمر مكرم، ويُقسم أمامه بأغلظ الأيمان أن يكون العادل الشفوق إذا آل إليه أمر مصر، ثم رآه وهو يتلقى الأمانة من أربابها، ويتربع على عرش البلاد بإرادة أبنائها ومشايخها، ثم رآه مرة ثالثة وهو يتنكر لأيمانه وعهوده ومواريثه، ويتحول من حمل وديع إلى نمر هصور يبطش بكل الذين أعانوه.

لقد ساء الجبرتي أن يرى محمد علي، وقد تملكته نزعة الشره إلى الأموال، فيصادرها دون سند من الشريعة، ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل، وساء الجبرتي أيضاً أن يراه ينهج نهج كل جبار طاغية في كره النقد، وإبعاد النصحاء الصادقين، وتقريب المتزلفين المنافقين، وإسناد الوظائف الرئيسة إلى الغرباء الذين تكالبوا على فتات مائدته.

وعندما وصل إلى علم محمد علي باشا ما كتبه الجبرقي عنه في صفحات  
ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس، لم يرحم شيخوخته، وأوعز إلى  
أعوانه فاغتالوا ابنه خليل في أثناء سيره في شارع شبرا، وارتاع الرجل وهو  
يتلقى جثمان ابنه الصريع، وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتألت نفسه همًّا  
وكمدًّا، وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه، حتى ابيضت عيناه من  
الحزن، وكُفَّ بصره، كما كفت يده عن الكتابة إلى أن وافاه الأجل، فغادر  
الدنيا حزينًا مكلومًا.